الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

شروح البردة وآثارها الأدبية واللغوية
الشروح الجزائرية نموذجا

Mystitic Vision in the Poetry of Sidi Mohamed Ben Ali Abahlol Almagi

محمد بوسعيد أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية
وآدابها،جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف

ملخص

تعتبر قصيدة البردة من عيون الشعر العربي وفرائده، ومن أروع قصائد المديح النبوي، ومن أحسن الآثار الأدبية التي تلقاها أهل المغرب بالرواية والحفظ والإنشاد والمعارضة، فقد كانت تدرس في حلقات العلم، وتنشد في مجالس الذكر، وفي المناسبات الدينية احتفاء بسيرة النبي العطرة، وشمائله النضرة، وتقدم إضاءة شعرية عن الشخصية المحمدية من وجهة نظر صوفية لا تخلو من بعض الشطط والغلو، ولذا كثرت حولها الشروح، وتعددت مصادرها، وتنوعت اتجاهاتها. ويحاول هذا البحث أن يقدم صورة عن عناية المغاربة بشرح هذه القصيدة، مركزا على إسهامات الشراح الجزائريين في شرح هذا الأثر الخالد.

الكلمات الدالة : البردة، الشروح الجزائرية، الآثار الأدبية، الآثار اللغوية

Résume

Le poème d'el Borda a été toujours considéré parmi les meilleurs et les magnifiques poèmes dans la littérature arabe, ce poème joue un rôle très important chez les musulmans notamment dans la culture religieuse, car elle contient des paroles et des sens de la vertu, le beau et le bien qui reflète la personnalité du prophète Mohamed d'un point de vu sufisme, et ce travail essaye de présenter une image sur l'importance de ce genre de poème chez les maghrébins, et particulièrement chez les algériens

Mots clés : el Borda, les explications algériennes, les traces littéraires, les traces linguistiques

من الاتجاهات الأدبية الثابتة في تاريخ الأدب العربي العناية ببعض القصائد حفظاً ورواية وشرحاً.ولعل قصيدة لم تحظ بالعناية التي حظيت بها قصيدة البردة للبوصيري في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، إذ عدت من عيون الشعر العربي وفرائده، ومن أروع قصائد المديح النبوي وأنفسها، ولا يكاد تضاهيها إلاّ قصيدة كعب بن زهير.

وليس مستبعداً أن يكون البوصيري قد اختار لقصيدته اسم البردة ليمنحها بعداً دينياً حسب ما ذكره في رؤيته المنامية التي أوحت له بهذه القصيدة، وأعطت لها زخماً روحياً، وطابعاً أسطورياً، فبردة كعب بن زهير بردة حقيقية، وبردة البوصيري منامية تتضمن كثيراً من المعتقدات الشعبية، ولذلك سميت البرأة، لأن صاحبها يزعم أنه أنشدها، في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وشفي بها من علته، ولعل هذا ما جعل المتصوفة ينسجون حولها الأساطير، ويزعمون التداوي بها من الأوجاع والأسقام،وتطهير النفس من الآلام الحسية والمعنوية، حتى أصبحت من أهم أورادهم التي ينشدونها في المجالس والمآتم والموالد.

ونظراً لمكانة البردة الروحية والأدبية اهتم بها أهل المغرب، وأولوها عناية خاصة، وكان الإقبال على شرحها يمثل مظهراً من مظاهر هذه العناية، فكيف تعامل الشراح مع هذا النص؟ وما هي الاتجاهات التي غلبت عليهم؟ وما هي الضوابط والمعايير التي سار عليها الشراح في تعاملهم مع

نص البردة؟

يمثل الشرح في التراث العربي ملمحاً متميزاً، حتى إن المستقرئ لفهرسة هذا التراث تذهله كثرة الشروح والتعليقات والحواشي في شتى حقول المعرفة من لغة ونحو وبلاغة وفقه،إلى درجة تجعلنا نقول إن بعض المؤلفين لا نكاد نعثر له إلاّ على الشرح أو ما يدخل في مجاله مثل عبد القادر البغدادي 1093هـ الذي ألف كتابه الشهير» خزانة الأدب ولبّ لباب العرب» في شرح شواهد الرضى الاسترابادي في شرحه على كافية ابن الحاجب ت 646هـ، ثم شرح شواهد كتاب مغني اللبيب عن كتاب الأعاريب لابن هشام الأنصاري .

لقد كان تصنيف الشروح إذن يمثل ظاهرة متميزة في الثقافة العربية الإسلامية، فما كان يظهر كتاب إلاّ ويتصدى العلماء لشرحه والتعليق عليه، وذلك لارتباطه بالغاية التعليمية التي يرمي من خلالها الشارح إلى تبسيط المادة التعليمية للمتعلم، وإزالة عوائق استيعابها، والعناية بضبط القواعد، وتأصيل المفاهيم، وحسن العرض، والقدرة على الإبلاغ والإفهام، والإحاطة بكل ما يتعلق بالنص من لغة ونحو وبلاغة ونقد.

ورغم الغاية التعليمية التي اصطبغت بها الشروح قديماً، فإن الشراح كغيرهم من المؤلفين كانوا ينطلقون في التصنيف من خلفية دينية وهي خدمة النص القرآني، والعناية بكل ما يعين على حفظه وفهمه وتفسيره، وقد بين الأعلم الشنتمري أنه تجرد للتأليف في اللسان العربي خدمة لكتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «فابتديت التأليف في معرفة اللسان العربي ، وتجردت فيما يؤدي إلى البيان النير الجلي، الموصل إلى العلم بكتاب الله تعالى ، وحديث رسول الله الأمين المرتضى فوضعت في ذلك دواوين مختلفة من نحو مبيّن،وشعر مفسر» [1]

لقد كان الشرح يمثل اتجاهاً متميزا عند المغاربة والأندلسيين، إذ جعلوا من هذا النمط مجالاً لنشاطهم التأليفي، حتى أصبحت هذه الظاهرة أمراً يلفت النظر، ويدعو إلى التساؤل هل كان الشراح يكررون تجارب السابقين، أم كان نشاطهم هذا يمثل إضافة نوعية لها خصوصيتها المعرفية والمنهجية « فباستقراء كتب التراجم الأندلسية نلاحظ كثرة واضحة في كتب الشراح من أوائل التأليف إلى أواخر أيامهم في غرناطة» [2]

ولما كانت الشروح في تراثنا المغربي والأندلسي من الثراء الذي يصعب الإلمام به، والتنوع الذي يستعصى حصره،أردنا التوقف عند قصيدة البردة لشرف الدين البوصيري ورصد ما حظيت به من عناية لدى الشراح الجزائريين، إذ كانت تشكل لديهم مادة ثرة للتدريس والإقراء والشرح والتحليل والإنشاد، كما كانت تعتبر من أهم مصادرهم في دراسة السيرة النبوية والأدب واللغة. ولا ريب أن تكون من النصوص الممتازة التي كانت تدرس مع حماسة أبي تمام في حلقة ابن جزي، كما ذكر ابن المجاري في برنامجه» [3]

وكان عبد الرحمن أحمد بن يوسف المعروف بابن مقلاش أشهر من قام بتدريس قصيدة البردة لطلبة العلم في المغرب والأندلس، ويعد من أكبر شراحها، وله عليها ثلاثة شروح: «كبير وصغير ومتوسط» [4]

ويقف المتفحص لشرحه المتوسط على مكان يجري بينه وبين طلبته من جدل ونقاش حول بعض أبياتها المشكلة، وكيف كان يلوم طلبته ويوبخهم عندما يناقشونه فيما بدا فيه البوصيري مغالياً في مدح النبي صلى الله عليه وسلم مثل قوله:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من

لولاهُ لم تخرجِ الدنيا من العَدَمِ

قال ابن مقلاش: ولقد سألني بغرناطة بعض طلبة العلم وهو ابن علاق بأن قال: «كيف يعقل أن الدنيا إنما خرجت من العدم إلى الوجود لسببه؟ فأجبته بعد أن وبخته وقلت له لم تستغرب هذا في حق سيد المرسلين، فلما زجرته أراد قاضي غرناطة تأديبه على ما سأل» [5]

ومن الحلقات المشهورة في تدريس البردة حلقة الشريف أبي محمد التلمساني الذي قال فيه أبو عثمان الأليري وهو من شراح البردة «كان الشريف رحمه الله مليح الطلب، مسدد النظر وافر العقل،أكثر الناس تناصفاً،وأسرعهم تهدياً لفهم المسائل بديهة» [6]

ومن أصداء حلقته في تدريس البردة ما نقله عنه أبو عثمان الأليري عند فراغه من شرح بيت البوصيري:

لو نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُه عِظَماً

أَحْيَا اسْمُه حين يُدْعَى دَارسَ الرِّمَمِ

وقد استشكل بعض أكابر الطلبة هذا المعنى، وهو كون آياته لا تناسب قدره، وأنف من هذه المقالة واستعظمها، فقال: «هذا شيء يقف عنده الشعر، وتشمئز من سماعه النفوس ، وتنفرمنه الطباع السليمة» [7]

وفي ضوء هذه النصوص يتضح أنّ البردة لقيت عناية فائقة من لدن الشراح المغاربة، وأن كثرة الشروح عليها تعكس طبيعة الدور التثقيفي الذي كانت تؤديه ، كما تعكس البعد الروحي الذي أتاح لها هذا الذيوع والانتشار، ونعني به ما كانت تحمله من مضامين روحية تتعلق بسيرة الرسول الزكية،وشمائله العطرة،رغم ما شابها من غلو،لا يليق بجانب الرسول الأعظم.

والبعد الروحي عامل فعال في سيرورة النصوص، وتحويلها من نصوص لغوية إلى نصوص غيبية ذات تأثير روحي «واستغلال النصوص الأدبية، وتحويلها من كونها نصوصاً لغوية دالة، قابلة للفهم، إلى نصوص ذات تأثير روحي ظاهرة شائعة في التراث العربي الإسلامي، وما البردة إلاّ حلقة في سلسلة طويلة من هذا التراث الرمزي، التراث الغيبي، التراث الآخر، أفرزته حاجات الناس ورغباتهم إلى كل ما هو روحي خفي،واعتقادهم في قوته ومفعوله الباطني»[8]

وإلى جانب البعد الديني فثمة بعد شعبي أسهم في ذيوع البردة، وإقبال الناس على روايتها وحفظها وإنشادها،ونعني به ما احتوت عليه من مضامين فلكلورية جعلت الوجدان الشعبي يحتضنها ويضفي عليها مظاهر التقديس والتعظيم، ويتداوى بها - حسب المعتقدات الشعبية - من الأوجاع والأسقام، ويرجو بها الغنى من الفقر، والفرج من الشدائد وغيرها من الطقوس التي تغلغلت في الوجدان الشعبي، وارتبطت بهذا النص .

وزاد الصوفية من هذه الطقوس تمكناً في الوجدان الشعبي حين استعملوا أبياتها في الرقى وتلاوتها عند دفن الموتى، وحددوا شروطاً لتلاوتها كالتطهر وعقد النية، والتوجه نحو القبلة.. [9]

زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم شارك البوصيري في نظمها، وكان يتمايل عند سماعها، وغيرها من الشبهات الخطيرة، التي أقل ما توصف به أنها مخالفة للدين.

لقد اتسع مجال شرح البردة في المغرب، وتنوعت أغراضه، وتشعبت اتجاهاته، وتمخض عن إسهامات تميز بعضها بالجدية في الموضوع والطريقة والمنهج، وإن لم يختلف في إطاره العام عن أعمال الشراح المشارقة الذين أسسوا القراءات الأولى لشرح الشعر وتفسيره، لأن حركية التفاعل الأدبي والعلاقات الثقافية بين أدب المشرق والمغرب لم تنقطع، وقضية الانتماء إلى الأصل والتأثر به ليس محل مماحكة أو جدل، ولذلك ظلت السمات التي طبعت أدب الشروح في المشرق تمارس سلطانها على الشروح المغربية والأندلسية، وتؤثر فيها، وقد يصل التعلق بها أحياناً إلى محاولة تقليدها في الشكل والمحتوى، واعتبارها مرجعية ثابتة يصعب الفكاك منها.

وفي إطار التأريخ لحركة شروح البردة في المغرب، سنقتصر على رصد عينات من الشروح الجزائرية، التي تعد إسهاماً له وزنه لطبيعة الأعلام الذين اضطلعوا به، وفي الحقيقة أنه لم يصل إلينا من هذه الشروح إلاّ النزر القليل وإن كان نصيب الجزائر من هذه الشروح ثمانية شروح[10]

وهي:

- شرح ابن مرزوق الجد781-710هـ
- شرح سعيد العُقباني 720- 811هـ
- شرح ابن مقلاش
- شرح علي ابن ثابت القرشي 829هـ
- شرح ابن مرزوق الحفيد 841هـ
- شرح قاسم العقباني 854هـ
- شرح الشريف عبد الرحمن الغبريني
- شرح ابن الحاج الورنيدي

إن الناظر في ما تبقى من هذه الشروح وهي قليلة جدا. يلاحظ أن بعض الشراح قد اقتصروا في تعاملهم مع نص البردة على ما يلقي الضوء على المعنى ويزيل غموضه ولبسه، وبعضهم قد توسع في ذلك حتى غدا البيت المشروح معرضا لإظهار مخزونه المعرفي من شعر ولغة ونحو وبلاغة ونقد وسيرة وتاريخ، حتى تراكمت مادة الشرح، وأصبحت تشكل عبء يرهق المتلقي، لأن الشارح ينساق وراء حشد الشواهد والأمثال والآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويورد صوراً من الجدل والنقاش، ويذكر الروايات المختلفة ويصححها، ويستدرك على مَنْ سبقه من الشراح، مستعرضاً نماذج من المسائل الخلافية والمذهبية، مبرزاً قدرته على الفهم والشرح والتحليل .

وإذا كان فهم الشعر وشرحه يتطلب الإلمام بعناصره ومكوناته المعرفية، وكان إدراك الشراح لها متفاوتا، تبعاً لاختلاف ثقافة الشارح وميوله، ومذهبه في الشرح، فقد كان لزاماً أن تختلف الشروح، لاختلاف ميول الشارح، وطبيعة الآليات الإجرائية التي يستخدمها، وطبيعة المتلقي، لكن الاختلاف لم يكن جوهرياً، لأن عملية الشرح الأدبي ظلت خاضعة لمجموعة من الضوابط والمعايير التي سار عليها الشراح في تعاملهم مع النصوص، والتي لا يتضح المعنى دون الإلمام بها، ويمكن تلخيصها في القضايا الآتية:

أولاً: شرح الألفاظ

ثانياً :شرح المعنى النحوي

ثالثاً :شرح المعنى العام للأبيات

أولا: شرح الألفاظ

عندما يتأمل الدارس شروح الشعر قديماً تستوقفه ظاهرة عناية الشراح بالألفاظ ، واتخاذها مدخلاً لتحليل البيت ورصد قيمه التعبيرية والمعنوية، لكونها تشكل عنصراً ثابتاً في بنية الكلام، ولعل اهتمامهم بالألفاظ نابع من أنها هي أساس تركيب الكلام على حد تعبير ابن جني «إن الكلام إنما هو في لغة العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها المستغنية عن غيرها» [11]

وبهذا المنظور تشكل الألفاظ عنصراً ثابتاً في بنية الكلام، فهي أساس تركيب الجملة، وهي التي تمنح للسياق شكله بتفاعلها مع ما قبلها وما بعدها، فان اقتطعت من سياقها، وكانت عارية من كل تقييد نزعت نحو الإبهام والغموض، وتعددت دلالتها، وأصبحت في حاجة إلى تحديد الدلالة المقصودة، ونفي ما عداها.

ولم يشذ شراح البردة عن هذه القاعدة، فقد توقفوا عند الألفاظ الغريبة، وانطلقوا منها لكشف الدلالة، وسلكوا في ذلك مستويات متعددة، فحددوا معنى اللفظة المعجمي، وموقعها الإعرابي، وبنيتها الاشتقاقية والصوتية، وعلاقتها بالتركيب، وما يتصل بها من أبحاث نحوية وصرفية وبلاغية ونقدية، واعتمدوا في ضبط اللفظة على عدد من الطرق، من أهمها ضبط اللفظة بالشكل، أو بطريق التنصيص عليها بالكلام «وقد اعتمد الشراح في ضبطهم

للألفاظ وشكلها على عدد من الطرق والكيفيات، منها شكل الألفاظ بالحركات، وهذه الطريقة قلما تسلم اللفظة فيها من التحريف والتصحيف حين تتناولها أقلام النساخ ولذلك وجدنا أغلب الشراح يعتمدون طريقة أخرى وهي طريقة التنصيص بالكلام على كيفية النطق وهذه الطريقة شائعة في أكثر الشروح» [12]

ومن أمثلة الطريقة الثانية قول ابن مرزوق في شرح لفظة التذكر «أمن تذكر جيران بذي سلم»

التذكر: مصدر تذكر ومعناه الحفظ لأنه ضد النسيان. ويقال ذكر وذكرى غير منون وذكرة. وليكن هذا على ذكر منك بكسر الدّال وضمها أي لا تنسيه وذكرت الشيء بعد النسيان وذكرته بلساني أي نطقت به وبقلبي وتذكرته وأذكرته بمعنى واحد» [13]

لكن الشراح كانوا كثيراً ما يبالغون في هذا الاتجاه، ويتوسعون فيه، فتتراكم مادة الشرح، وتخلق نوعا من الإرهاق لقارئ هذه الشروح، لأنها تثقل الشرح بمواد زائدة، لا حاجة للشرح بها.

ولعل هذا ما أدى ببعض الشراح إلى تهذيب الشروح المطولة واختصارها، وتنقيحها، وفي هذا الإطار اختصر أبو زيد الغبريني شرح ابن مزوق ونقحه، وصنف ابن الحاج الورنيدي اختصاراً جمع فيه بين شرح سعيد العقباني، وشرح ابن مرزوق الحفيد، وشرح علي بن ثابت الأنصاري وكلهم جزائريون.

وكان كثيراً ما يلجأ شراح البردة إلى ضبط الكلمة بكلمة مشهورة الوزن، والاستعانة بها لتحديد مدلول اللفظة المراد شرحها، ومن أمثلة ذلك ما ذهب إليه ابن مرزوق في ضبط لفظة الأطم. قال: «الأطم واحدتها أطمة كأكمة قال الجواهري هي معروفة . وقيل الأكم اسم جنس للجبل الكبير، كما أن الهضب اسم جنس للصغير، وتجمع أيضا أكمات، وتجمع أكم على آكام كجبل وجبال، وآكام على أكم ككتاب وكتب وأكم على أكم كعنق وأعناق» ومن ذلك شرحه للفظة «نعم» من قول البوصيري:

نبينا الآمر الناهي فلا أحد

أبرمنه في قول لا ولا نعم

«قال الجواهري النعم واحدة الأنعام وهي المال الراعية، وأكثر ما يقع على الإبل، وقال الفراء: يذكّر ولا يؤنث، نعم، وهذه نعم .. وجمعه نعمان كحمل وحملان، وجمع الجمع أناعيم كأقوال وأقاويل» [14]

وعلى ضوء هذه الشواهد يتضح لنا أن الشارح يتكئ على كلمة مشهورة الوزن ويستعين بها على تحديد مدلول اللفظة المراد شرحها، ويبدو أن هذه الطريقة أسلم في ضبط مدلول الكلمة من طريقة الشكل بالحركات أو طريقة التنصيص عليها بالكلام.

وفي بعض الأحيان يتتبع الشارح التطور الدلالي للفظة، وما اعتراها من تغيير أثناء الاستعمال، والإشارة إلى كونها فصيحة أو مولدة أو عامية على نحو ما نجده عند ابن مرزوق في شرح لفظة «الحمام» في بيت البوصيري.

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على

خير البـــرية لم تنســـج ولم تحُم

قال ابن مرزوق : «الحمام بفتح الحاء عند العرب ذوات الأطواق من نحو الفواخت والقَمارى والقطا والوراشين، وأشباه ذلك، يقع على المذكر والأنثى لأن الهاء إنما دخلته على أنه واحد من جنس لا لتأنيث، وعند العامة أيضا الدواجن فقط» [15]

وقد يشير الشارح في بعض الأحيان إلى اللهجات، مبيناً البيئة التي تتداول هذه اللهجات، مثل إشارة ابن مرزوق إلى أن أهل الحجاز يقولون برأت من المرض، في بيت البوصيري:

كم أبرتْ وصباً باللمس راحتُه

وأطلقت أربـــاً من ربقة اللمم

قال ابن مرزوق: وأهل الحجاز يقولون: «برأت من المرض برءا بالفتح، وأصبح فلاناً بارئا من مرضه وأبرأه الله من المرض» [16]

وأحيانا يلجأ الشارح إلى العرف لتحديد معنى اللفظة، ومن أمثلة ذلك شرح ابن مرزوق للفظة البهار في هذا البيت.

فالنخل باسقة تجلو قلائـــدها

مثل البهار على الأبصار والعنم

قال ابن مرزوق: «والبهار كما عند الجواهري: العرار الذي يقال عنه عين البقر وهو بهار البر...وهو نباتة صفراء تنبت أيام الربيع يقال له العرارة... وقد ظهر لي من كلام الجواهري أن هذه الصفة صفة للنور الذي يقال له ببلاد المغرب النرجس...قال الشريشي: النرجس الذي يشبه به شعراء المشرق العيون. وهو نبات له دائرة قائمة من ورق صفر وهذه الصفة التي أثبتها أهل المشرق للنرجس هي التي يصف بها أهل المغرب البهار... وهذا الوصف موافق الآن لعرف بلدنا تلمسان وفاس ، وأظن سائر المغرب» [18]

الشرح النحوي

كان أوائل الشراح يتكئون على النحو لشرح بعض التراكيب، غير أن ذلك لا يعدو كونه إشارات مقتضبة ينثرونها هنا وهناك، ولما تطور التفكير النقدي وتأصلت أسسه أدرك النقاد والبلاغيون أهمية النحو في كشف الدلالة الغامضة للشعر، لأن ما ينشأ من علاقات بين الكلم يتوقف عليها صحة المعنى أو فساده إنما يرجع إلى وظائف النحو وأحكامه، و يعتبر عبد القاهر الجرجاني أهم مَنْ أسس هذا التفكير وأصله «فلا تريّن كلاما قد وصف بصحة النظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلاّ أنت تجد مرجع تلك الفصاحة وذلك الفساد وتلك المزية، وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه» [18]

لقد أدرك النقاد والشراح أهمية النحو في بيان ما أشكل من معاني الشعر، وما خفي من مقاصده ،لأن هناك ألفاظاً لم تستبهم على الأذهان بسبب علاقاتها الدلالية، وإنما استبهمت من أجل الوظائف النحوية التي يضطلع بها الكلام، ومن أجل الصيغ الصرفية التي جاءت عليها.

ولما كانت الوظائف النحوية، والصيغ الصرفية من آليات فك الغموض الذي يلف المعنى استعان بها الشراح لتفسير بعض معاني البردة المستبهمة، فكانوا يذكرون نوع الكلمة ويحددون أقسامها وعناصرها المختلفة، ويشيرون إلى ما يعرف بالفصائل النحوية كالتذكير والتأنيث، والتعريف والتنكير، ويذكرون الوجوه الإعرابية المختلفة لمواقع الكلمة، وكل ما يلقي الضوء على الدلالة من جهة النحو، وكان استخدام الشراح للظواهر النحوية في شرح معاني البردة متفاوتاً، يتسع عند بعض الشراح، ويضيق عند آخرين.

يقول ابن مرزوق مبيناً مشتقات لفظة القمر، ولم سمي بهذه التسمية؟ وذلك في شرحه لبيت البوصيري:

أقسمتُ بالقمر المنشق أنّه له

من قلبه نسبة مبرورة القسم

قال: «يسمى القمر قمراً بعد ثلاث ليال إلى آخر الشهر، وقيل سمي بذلك لبياضه، وقيل لأنه يقمر الأعين أي يغلبها بنوره، ومن مشتقاتها. تقمرته، أي أتيته في القمراء، وتقمر الأسد طلب الصيد في القمراء، والأقمر الأبيض يقال ..سحاب أقمر، وليلة قمراء مضيئة، وأقمرت ليلتنا: أضاءت، وأقمرنا طلع علينا القمر..» [19]

ويقول في لفظة المنشق: « المنشق اسم مفعول من شققته فانشق إذا قسمته، وهذا شقيق : إذا انشق الشيء نصفين، فكل واحد منهما شقيق الآخر، ومنه الأخ الشقيق والشقيقة الفرقة بين الجبلين.

والشقيق نبت والجمع شقائق، وشقائق النعمان...وشق العصا: فارق الجماعة، وانشقت العصا: تفرق الأمر، وتشقق بصر الميت نظر إلى شيء لا يرتد طرفه، قال ابن السكيت: ولا يقال شق الميت بصره وهو الذي حضرته الوفاة، والانشقاق أخذ شيء الشيء وهو نصفه» [20]

شرح المعنى العام للأبيات

يشكل شرح المعنى العام للبيت أو الأبيات غاية أساسية في شرح الشعر، فهو المحور الرئيس الذي تدور في فلكه جميع مواد الشرح، مثل شرح الألفاظ والتراكيب والمعنى النحوي، إذ تتقاطع جميعاً في تحديد الدلالة، وتتآزر لعقد الألفة بين النص والمتلقي.

فإذا كان الشعر عملاً فنياً مادته التشكيلية اللغة، فإن اللغة تقوم على فاعلية الألفاظ والتراكيب والمعنى النحوي، وتعمل على كشف المعنى، وإزاحة أي غموض يلتبس به.

ومن ثم يصبح حشد العناصر السابقة ليس غاية في حد ذاتها، وإنما وسائل يتلطف بها إلى الدلالة، التي هي غاية ما يسعى المتعامل مع النص إلى إدراكها سواء أكان ناقداً محللاً أو شارحاً مفسراً، ولذلك كانت عناية العرب بالألفاظ تدل على عنايتهم بالمعاني، على نحو ما بيّنه ابن جني «فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا تَرَيَنَّ أن العناية إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني» [21]

وإذا كان كشف الدلالة هو الغاية المقصودة من الشرح فكيف نظر الشراح إلى الدلالة المعنوية في قصيدة البردة؟

إن نظرة متفحصة لشروح البردة تجعلنا نزعم أن الشراح أولوا المعنى عناية خاصة، وبحثوا عما تختزنه الألفاظ من دلالات عميقة، وما يؤول إليه المعنى من احتمالات ممكنة، وكان منهجهم في تتبع المعنى وملاحقته، يدل على أنهم ينظرون إلى النص على أنه يشكل وحدة متكاملة، وأن البيت له صلة معنوية بما قبله وما بعده، وإن كان الشرح قائما على وحدة البيت، ولذلك كانوا تارة يشرحون القصيدة بيتاً بيتاً، وتارة بيتين أو أكثر، فابن مرزوق - مثلاً - يورد عدَّة أبيات من البردة مجتمعة، لكنه يشرحها بيتاً بيتاً، حتى يكمل جميع أبيات المجموعة ، ورغم هذه الطريقة المفككة ، إلاّ أنه يشير إلى الرابطة المعنوية، ومن أمثلة ذلك:

لا تنكروا الوحي من رؤياه إنّ له

قلباً إذا نامت العينان لم ينم

فـذاك حين بلـوغ من نبوتـــه

فليس ينكر فيه حال محتلم

تبـــارك الله ما وحي بمكتسب

ولا نبي على غيب متهـــم

قال: «لما ذكر الناظم رحمه الله حال مولده صلى الله عليه وسلم، وما ظهر فيه من الآيات وذكر من معجزاته ما يوافقها على جهة الاستطراد كما نبه وأشار إلى بعض أحواله صلى الله عليه وسلم حال الصغر وهو شق قلبه حال كونه رضيعاً في بني سعد أخذ يذكر مبدأ الوحي إليه صلى الله عليه وسلم، وإن شئت قلت: لما أشار الناظم إلى شق قلبه صلى الله عليه وسلم عقبه بهذه الآيات تنبيها على أنه لم يرد الشق الواقع في الصغر، وإنما أراد الشق الواقع ليلة الإسراء كما هو في صحيح البخاري وقد تقدم بيان هذا عند قوله:

أقسمت بالقمر المنشق أن له

من قلبه نسبةً مبرورة القسم

وحمل كلامه على هذا الوجه أحسن الوجهين:

أحدهما : تعقيبه بدء الوحي في قوله:

فذاك حين بلوغ من نبوته

ليس ينكر فيه حال محتلم

وثانيهما: أن حديث البخاري أصح، ولك أن تجمع بين الحديثين بأن الشق كان مرتين» [22]

فابن مرزوق كما يبدو مهتماً بالبحث عن وشائج القربى والصلات المعنوية بين هذه الأبيات والأبيات السابقة ،لتحديد المغزى العام للأبيات.

ومن صور البحث عن الرابطة المعنوية بين أبيات البردة عند ابن مرزوق قوله عند شرح هذه الأبيات :

أعيا الورى فَهْمُ مَعْناهُ فليس يُـرَى
لِلْقُرب والبعد فيه غيرُ مُنْفَحِـمِ
كالشمس تظهر للعينين من بُعُدٍ
صغيرةً ، وتُكِلُ الطرْفَ مِنْ أَمَمِ
فمبلـــغُ العلـــم فيه أنه بشـــرٌ
وأنّه خيـرُ خلْق الله كُلِهِـــمِ

قال: «... وجه الربط بين هذه الأبيات والأبيات التي بعدها وهي:

أكـرمْ بِخَلْقِ نبـي زَانَـهُ خُلُـقٌ
بالحسن مُشْتَمَلٍ بالبِشْر مُتَسِمِ

إلى قوله:

لا طيبَ يعدلُ تربا ضمَّ أعظمه
طوبى لمُنتشقٍ منه ومُخْتتـــم

إنه لما أعيا الورى وقال فمبلغ العلم منه كذا وكذا، إنه خير الخلق، أخذ يذكر ما اتصف به من الصفات مما أوجب له الحكم بأنه خير الخلق ...» [23]

ولم يكتف الشراح بالوقوف على الدلالة الظاهرة لأبيات البردة، وإنما يتعمقون في تحليلها باستقصاء وجوهها المتعددة، وهو أسلوب انتهجه ابن مقلاش الوهراني، وابن مرزوق الحفيد، فابن مرزوق لا يكتفي بتخريج دلالة واحدة في شرح هذا البيت:

وَقَدَّمَتْكَ جميعُ الأنبيـاءِ بهـا
والرسل تقديمَ مخدوم على خَدَم

« وقدمتك يحتمل أن يريد الناظم ما ورد في حديث الإسراء أنه صلى الله عليه وسلم أمّهم في الصلاة. ولفظ الحديث صالح لعموم الأنبياء والرسل ولابد في ذلك لأنها حالة خرق العوائد وضمير بها على بأن يعود على المنزلة أو على الليلة المفهومة من الليل أو على لفظ الليل لأنه ليلة والباء ظرفية في الوجهين... وقوله والرسل إما مخفوض بالعطف على الأنبياء ، والتقدير عنده في هذه الحالة : وجميع الرسل وهو مرفوع بالعطف على جميع . فعلى التقدير الأول هو صريح في العموم وعلى التقدير الثاني ظاهر فيه» [24]

ويورد ابن مرزوق احتمالاً آخر» وهناك احتمال آخر وهو أن يكون الناظم أراد بالتقديم في البيت الشرف والمنزلة فيكون المعنى « قدمتك» حكمت بتقديمك أي منزلتك على منازلهم، وأنها أشرف. وعلى هذا الاحتمال يكون الضمير «بها» عائد على المنزلة في قوله «نلت منزلة» والمراد بها الرفعة، والباء للسببية، أي قدمتك بسبب إنالتك تلك المنزلة التي لم تدرك وصح حكمهم له صلى الله عليه وسلم بالتفضيل، وقد ماتوا قبل لقائه إما لاطلاعهم على ذلك بالوحي حالة حياتهم فحكموا له بذلك على الجميع السلام» [25]

ثم يرى ابن مرزوق في المسألة احتمالاً آخر، وهو كون ذلك التفضيل كان ليلة الإسراء، مستندا في ذلك إلى حديث الإسراء مبيناً أن القرائن التي ترجح حمل التقديم على الشرح لا على الصلاة قول الناظم «مخدوم على خدم»

وتوقف الشراح عند مضامين البردة الصوفية، وأشاروا إلى ما تضمنته من لطائف وإشارات، وأشار ابن مرزوق إلى النهج الصوفي الذي سلكه في شرح البردة في مقدمة شرحه «وجعلت الكلام على ما أشرحه من أبياتها سبع تراجم: الغريب، التفسير، المعاني، البيان، البديع، الإعراب، ثم الإشارات الصوفية أذكر منها ما يمكن أن يكون إشارة ظاهرة إلى المعنى المذكور» [26]

وقد افتتح ابن مرزوق شرحه للأبيات الأولى من القصيدة بهذه الإشارة الصوفية بقوله: أعلم رحمك الله أنه من المحتمل أن يكون الله تعالى أجرى الابتداء بالبكاء والاستفهام عن موجب مزج الدمع بالدم على لسان الناظم تنبيهاً لك من غفلتك عما يراد بك» [27]

ويحشد الشارح مجموعة من الشواهد من القرآن والسنة والشعر لتأكيد هذا الاتجاه، فمن القرآن قوله تعالى: «ليبلوكم أيكم أحسن عملاً» [28]، ومن الحديث «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» [29]، ومن الشعر العربي قول الشاعر:

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحـةَ كلّ حـيٍّ
ولكنا إذا متنا نشرنـــا ونُسْأَلُ بعدها عن كل شيء

ثم يقول : «هذا احتمال، ويحتمل أن يكون في بكائه من أجل الجيران تنبيه لك من الله تعالى لتبكي خوفاً من أن تكون مجاوراً لأهل الجنة وهم أهل ذي سلم لأن الجنة دار السلام، وخوفاً من أن تكون من أهل كاظمة وهي النار، إنها اليوم كاظمة غيظها، ويوم القيامة تبديه انتقاماً من أعداء الله...» [30]

ويستمر ابن مرزوق في تخريج الإشارات الصوفية عن طريق تجريد العبارات والألفاظ، من معانيها الظاهرة، والبحث عن احتمالاتها الممكنة، وهكذا يتحول شرحه إلى لطائف وإشارات تعكس ارتباطه العميق بالفكر الصوفي، الذي أصبح ظاهرة متميزة في عصر الشاعر.

وإلى جانب اهتمام الشراح بالجانب اللغوي والدلالي في قصيدة البردة، اهتموا أيضاً بالجانب النقدي، فتحدثوا عن بنية القصيدة من وزن وقافية، ومطلع، وحسن تخلص، واستوقفهم موضوع خروج البوصيري من النسيب إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، فابن مرزوق بعد أن شرح

مقدمة البردة الغزلية توقف عند قول البوصيري:

محضتني النصح لكن لست أسمعه

إن المحب عن العذّال في صمـم

إنّي اتهمت نصيح الشيب في عذل

والشيب أبعد في نصح عن التهم

قائلاً: «من هنا شرع الناظم في التوطئة إلى الخروج إلى ما في قصده من مدح مولانا محمد صلى الله عليه وسلم وهو الموضع الثاني من المواضع الخمسة التي يتأنق فيها المتكلم، لا شك في حسن مساق الناظم هذا الكلام حيث خرج عن التشبيب الذي هو التغزل إلى عذل الشيب ثم الاعتذار بقوله:

فإنّ أمـــارتي بالســوء ما اتعظت

من جهلها بنذير الشيب والهرم

ثم إلى طلب من يعينه على رد نفسه الجموحة بقوله:

من لي برد جمـــاح من غوايتـها

كماتردجماح الخيـل باللجـم

إلى التحذير بقوله:

فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها

إن الطعام يقوي شهوة النهـم

ثم قال:

استغفر الله من قـول بلا عمـل

لقد نسبت به نسلاً لذي عقم

فلما أقر بعيوبه واستغفر لذنوبه، شفع ذلك الاستغفار بمدح النبي المختار وهو مقصوده الذي ليس وراءه مرام...» [22]

وفي الختام نقول إن قصيدة البردة من القصائد المشهورة، التي لقيت صدى واسعاً في تراثنا الأدبي، فقد انتشرت انتشاراً كبيراً، وكانت العناية بها جليلة، فهامَ بها المتصوفة، وعارضوها، وشطروها، وبالغوا في التبرك بها، وجعلوا قراءتها خيراً وبركة، وشفاء من الأسقام والأوجاع، وغيرها من البدع الحسية والمعنوية.

وكان الإقبال على شرحها يعكس مظاهرا لعناية بها، والشرح ممارسة نقدية لها علاقة بإنتاج النصوص، وهولا يعني توضيح النص وكشف غموضه فحسب، بل هو شكل من أشكال إعادة بناء النص بناء معللاً مدعوما بالشواهد والأمثلة، إنه انعكاس لفهم الشارح وفلسفته، وطريقته في التعامل مع النصوص، وهو محاولة جادة تؤسس لرؤية فلسفية للنص، ورغم حضوره المتميز في تراثنا العربي الإسلامي لم يحظ بدراسات توازي حجمه، ولم يحاول الباحثون الاستفادة من قيمته الأدبية، وما يوظفه من حقول معرفية متعددة مثل اللغة والنحو والبلاغة والنقد، وهذا ما تطرحه الاتجاهات اللسانية الحديثة مثل التداولية.

الهوامش

(1) الأعلم الشنتمري : شرح الحماسة 1/92، تحقيق علي المفضل حمودان، دارالفكر المعاصر، الطبعة الأولى ، بيروت 1419/2001

(2) محمد رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس77، مؤسسة الرسالة 1978

(3) برنامج المجاري 85

(4) سعيد بن الأحرش : بردة البوصيري بالمغرب والأندلس 90، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية 1419/1998

(5) ابن مقلاش: شرح البردة مخطوط الخزانة العامة بالمغرب 345، نقلا عن م.س 90

(6) أبو عثمان الأليري : شرح البردة مخطوط الأسكريال ورقة 193، نقلا عن م.س 91

(7) م.س ورقة 193

(8) سعيد بن الأحرش : م.س 101

(9) م.س

(10) سعيد بن الأحرش: م.س 175

(11) ابن جني : الخصائص1/32، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية (د.م)

(12) سعيد بن الأحرش :م.ن 410

(13) ابن مرزوق : شرح البردة 41

(14) م.س

(15) م.س

(16) م.س :30

(17) م.ن :42

(18) م.س عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز70

(19) ابن مرزوق: شرح البردة 2،8،9

(20) ابن جني : الخصائص 1/217

(21) ابن مرزوق : م.س

(22) م.س

(23) م.س :2/101

(24) م.س

(25) م.س

(26) م.س مقدمة شرح البردة

(27) م.س1/22

(28) سورة الملك الآية 2

(29) رواه الترميذي والنسائي وابن ماجة

(30) ابن مرزوق :م.س 1/22

(31) م.س 1/97